

جيلة بنت مرة

قائلة ومقتولة

اشتهرت نساء العرب بالفصاحة ، وبلاغة القول ، حتى لقد برز منهن من تقول الشعر ، وتحسن القول ، وتسوق الحكمة والقول ليصير مثلاً . أو حكمة خالدة تتناقلها الألسنة جيلاً بعد جيل .

وأسوق هذه الحكاية لا لقصد الوقوف على المضمون ، وإنما لاستخلاص مآثور الكلام ، وفصيح القول ، وجمال العبارة .

قصة مقتل كليب

كليب بن ربيع - اسمه وائل وكليب لقبه ، ولد سنة ٤٤٠ م ، ونشأ في حجر أبيه ، ودرب على الحرب ، ثم تولى رئاسة الجيش حتى قتله جساس بن مرة سنة ٤٩٤ م ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته ، وغير بذلك حيناً من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معدّ له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له ، لا يختبئ أحد في مجلسه غيره ، ولا يغير إلا بإذنه . ولا تورّد إبل أحد ولا توقد مع ناره . ولم يكن بكربى ولا تغليبي يجير رجلاً ولا بعيراً أو يحمى إلا بأمره .

وكان يجبر على الدهر فلا تخفر ذمته ، وكان يقول : وحش أرض في جواربي فلا يهاج ! وكان هو الذي ينزل القوم منازلهم ويرحلهم ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره . وقد بلغ من عزته وبغيه أنه اتخذ جرو كلب ، فكان إذا نزل به كلاً قذف

ذلك الجر وفيه فبعوى ، فلا يرى أحد ذلك الكلاً إلا بإذنه ، وكان يفعل هذا بحياض
الماء فلا يردّها أحد إلا بإذنه أو من آذن بحرب ، فضرب به المثل في العز فقيل :
أعز من كليب وائل ، وكان يحمى الصيد فيقول : صيد ناحية كذا وكذا
في جوارى فلا يصيد أحد منه شيئاً.

تزوج كليب بن ربيعة جليلة بنت مرة وكان لها عشرة إخوة أصغرهم يدعى
"جساساً".

وحدث أن كليباً دخل على امرأته جليلة يوماً فقال لها: هل تعلمين على
الأرض أمنع مني ذمة ؟ فسكتت. ثم أعاد عليها الثانية فسكتت. ثم أعاد عليها
الثالثة فقالت: نعم، أخي جساس - وهو جساس بن مرة ، كان فارساً شهماً أبيضاً
وكان يلقب الحامي الجار. المانع الذمار. فسكت كليب ومضت مدة ، وبينما هي
تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها :

من أعز وائل ؟ قالت: أخوأي جساس وهمام. فنزع رأسه من يدها وخرج.
ثم أن كليباً أعاد القول على امرأته فقال: من أعز وائل ؟ فقالت: أخوأي !
فأضمرها في نفسه وأسرها وسكت .

وجاءت البسوس فنزلت في جوارهم وكان لها ناقة يقال لها سراب فمرت
إبل لكليب بسراب وهي معقولة بفناء بيت البسوس، فنزعت الناقة عقالها
واختلطت بإبل كليب الذي كان على حوض الماء ومعه قوسه وسهامه فلما رآها
أنكرها ونزع سهاماً رماها به فمزق ضرعها فنفرت وهي ترغوه وقد اختلط لبنها
بدمها فلما رأتها البسوس صاحت: وأذلاه!!..وامجيراه!! وثارت ثائرة جساس
فأسرع إلى فرس له فركبها وحمل معه سلاحه وتبعه أحد فتيان قومه وانطلق

الفتيان ثائرين حتى دخلوا على كليب فقال له جساس: يا أبا المحامد عمدت إلى ناقة جارتني فعقرتها فقال كليب: أكنت مانعي من أن أنود عن حمائي! فاشتد الغضب بجساس وعطف عليه فرسه وطلعه برمحه وأقبل عمرو فطلعه أخرى وسقط كليب.

وقعت جلييلة بنت مرة بين شقي الرحي، فلقد قتل أخوها جساس زوجها كليب بن ربيعة، وفي ماتم كليب اجتمع عدد من النسوة قطن لأخت كليب: رجلي الجلييلة - أي اطردوها - عن مأتمك، فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب فقالت لها أخت كليب: يا هذه، أخرجي عن مأتمنا، فأنت أخت وإيرنا^١ الواتر - القتال^٢، فخرجت جلييلة وهي تجر أعطافها، ولما رحلت جلييلة قالت أخت كليب: رحلة المعتدي، وفراق الشامت! ويلٌ غداً لآل مرة، من الكرة بعد الكرة فبلغ قولها جلييلة، فقالت: وكيف تشمت الخرةً بهتك سترها، وترقب وتُرها! أسعد الله جد أختي، أفلا قالت: نفرة الحياء، وخوف الاعتداء!

ولما ذهب إلى أبيها مرة قال لها: ما وراءك يا جلييلة؟

فقالت: ثكل العدد وحرز الأبد، وفقد حليل، وقتل أخ عن قليل، وبين زين غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد.

فقال لها: أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟

فقالت: أمنية مخدوع ورب الكعبة أبا البُدُنِ تدع لك تغلب دم ريبها.

ثم أنشأت نُهول:

تعجلي باللوم حتى تسالي
يوجب اللوم قلومي واعذلي
جزع منها عليه فافعلي
حسرتا عما اتجلت أو تتجلي
قاطع ظهري ومدن أجلي
أختها وانفقات لم أحفل
تحمل الأم أذى ما تفتلي
اللهم أن يرتاح لي
سقف بيتي جميعاً من عل
رمي المصمى به المستأصل
وبدا في هدم بيتي الأول
خصني الدهر برزء معضل
من ورائي ولظى مستقبلي
إنما يبكي ليوم ينجلي
دركي ثاري ثكل المثكل
دراً منه دماً من أكحلي

يا بنة الأقسام إن لمت فلا
فإذا أنت تبينت الذي
إن تكن أخت امرئ ليمت على
جل عندي فعل جساس فيا
فعل جساس على ضني به
لو بعين فقتت عين سوى
تحمل العين قذى العين كما
إنني قاتلة مقتولة فلعل
يا قاتلاً قوض الدهر به
ورماني فقدم من كسب
هدم البيت الذي أسس
يا نسائي دونكن اليوم قد
مسني فقد كليب بلظى
ليس من يبكي ليومين كمن
درك الثائر شفافيه وفي
ليتة كان دمي فاحسبوا

وكان همام بن مرة ينادم المهلهل أخا كليب وعاقده ألا يكتمه شيئاً. فلما
ظعن مره بأهله أرسل إلى ابنه همام فرسه مع جارية، وأمره أن يظعن ويلحق
بقومه. وكانا جالسين، فمر جساس يركض به فرسه مخرجاً فخذه، فقال همام:

إن له لأمرأ ، والله ما رأيته كاشفاً فخذيه قط في ركض ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى انتهت الجارية إليها ، وهما معتزلان في جانب الحي. فوثب همام إليها. فسارته أن جساساً قتل كليباً، وأن أباه قد ظعن مع قومه، فأخذ همام الفرس فقال له المهلهل : ما شأن الجارية والفرس ؟ وما بالك ؟ فقال: زعمت أن جساساً قتل كليباً.

فضحك المهلهل، وقال: همة أخيك أضعف ، أخوك أضيقُ استأ من ذلك فسكت. ثم أقبل على شرابهما ، فجعل مهلهل يشرب شرب الأمن ، وهمام يشرب شرف الخائف ، ولم تلبث الخمر أن صرعت مهلهلاً ، فانسل همام وأتى قومه من بنى شيبان ، وقد قوضوا الخيام ، وجمعوا الخيل والنعم ، ورحلوا حتى نزلوا بما يقال له النهي.

ورجع المهلهل إلى الحي سكران ، فرأهم يعقرون خيولهم ، ويكسرون رماحهم وسيوفهم ، فقال : ويحكم ما الذي دهاكم ؟ فلما أخبروه الخبر قال : لقد ذهبتم شر مذهب ، أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها ؟ وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه. فانتهوا عن ذلك، ورجع إلى النساء فنهاهن عن البكاء وقال: استبقين للبكاء. عيوناً تبكى إلى آخر الأبد.

وجاءت أشراف تغلب إلى مرة بن دهل، وقالوا له: نعرض عليكم خصالاً إما أن تُحيي كليباً، أو تدفع إلينا جساساً قاتل كليب فنقتله، أو تدفع لنا. ظهر للقوم أن مرة حار في أمره، ولكنها خيارات تجعل الحكيم حيران.

- ما بك يا سيّد الحي؟

رفع الرَّجُلُ رأسه قائلاً: أمّا أن أُحيي كليباً فهذا لا يكون. وأمّا أن أدفع إليكم
جسّاساً فإنّه شابّ طعن على عجل ورجل. ولا أدري في أيّ البلاد صار وظعّن. وأمّا
أن أدفع لكم همّاماً فإنّه أبو عشرة وأخو عشرة وعمّ عشرة. وكلّهم فرسان، فلن بسليموه
إليّ فأدفعه إليكم يُقتل بجريرة غيره ويجناية سواه. وأمّا أن أمكّنكم من نفسي فما
أنا إلّا رجل لا تلبث الحرب أن تبدأ فأكون أوّل قتيل. ولكم عندي خصلتان: أوّلهما:
أن تأخذوا أحد أبنائي فتجروه بنسعة فنذبوه ذبح الجزور، والأثانيّة: ألف ناقة
سوداء المقتل تضمّنها بنو وائل.

- إنّنا لم نأت لترذل بنيك أو لتسومنا اللّبن.

وانصرفوا عنه راغبين إلى أتون حرب، بدأت شرارتها حكاية استمرّت .
ونستخلص من هذه القصة جميل الكلم ، وفصيح العبارة ، فهذه أخت كليب
تقول: (رحلة المعتدي وفراق الشامت) قول موجز يحمل في طياته كثيراً من المعنى
جعله مثلاً يضرب ويقال فيما يشبهه من مواقف .

وهذه جليلاً بنى مره نغول :

(وكيف تشمت الحرّة بهتك سترها، وترقّب وترها! نفرة الحياء، وخوف
الاعتداء!) جمل قصيرة موجزة فيها جمال التصوير وفيها من السجع ما يجعل
التعبير في قمة عالية من الفصاحة ، ألا يعد ذلك مثلاً؟

وتقول جليلاً لأبيها - أيضاً - مصورة ما آل إليه حال القوم بعد مقتل كليب:

تكل العدد وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين زين غرس
الأحقاد ، وتفتت الأكباد .

ياله من جمال ، وياله من رقة عبارة يزينها السجع غير المتكلف والتصوير

الاستعاري الرائع .